آليات معالجة التعصب في السنة النبوية

د.رقية طه العلـــواني
جامعة البحريـــن

أولا: مدخل مفاهيمي لوباء التعصب

التعصب في اللغة: من العصبية والعصبية أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناؤنهم ظالمين كانوا أو مظلومين. وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل: تعصبوا وفي الحديث: العصبي من يعين قومه على الظلم. والعصبي هو الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم والعصبة هم الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه ويتعصب بهم[1].

أما التعصب في المفهوم الأوروبي فهو مأخوذ من الاسم اللاتيني الحكم المسبق Praejudicium . ويعني الفكرة المسبقة التي لا تستند إلى واقع موضوعي أو منطق سليم وتكون لدى المرء بحكم وجودها بين من ينتمي إليهم وتنتقل منهم إليه فيكره أو يحب من تنسحب عليه الفكرة أو الكم دون سابق معرفة أو تجربة. فالتعصب هوى بالنفس واتجاه نفسي[2]. وتغير تلك التوجهات في النفس أمر بالغ الصعوبة لما ينطوي عليه من القوالب النمطية[3].

والتعصب يجعل في مقدرة المتعصبين الذين لهم السيطرة في مجتمعاتهم أن يميزوا أنفسهم فيها وأن يفرزوا غيرهم بحيث يستبقونهم تابعين لهم وخاضعين لسيطرتهم. وعادة ما يتوجه في المجتمع الواحد من الأغلبية إلى الأقلية. ويفسر ذلك التوجه علماء النفس الاجتماعيين أن بعض المجتمعات أو بعض الأفراد في جماعة داخل المجتمع، تقوم على اعتبار تماسكها في جماعة واحدة داخلية وتطلق على الأقلية أو ما دونها اسم الجماعة الخارجية. وتبدأ بتصور غيرها من الجماعات على أنها جماعات خارجية مختلفة عنها في خصائصها وثقافتها وقيمها. وبناء على ذلك تعاملها معاملة تتسم بالتعصب والتمييز. وكثيرا ما يقوم الصراع بينهما حيث تمثل قيم ومعايير وأنماط السلوك للجماعة الخارجية تهديدا لتماسك الجماعة الداخلية[4].

وهو وباء نفسي اجتماعي قديم حاربه الإسلام منذ بداية ظهوره. فقد كانت قيم العصبية القبلية العربية ومحاور الولاء التي أفرزتها متأصلة بعمق في الذات العربية. فلما جاء الإسلام أحدث نقلة نوعية تأبى انتقال تلك العصبية إلى المجتمع العالمي الجديد وتؤكد توسيع شبكة العلاقات الاجتماعية إلى ما وراء دائرة الولاء القبلي. وقد شكل التعصب والولاءات العصبية واحدة من أعتى العقبات في طريق الدعوة وانتشارها في بيئة كانت تعتبر المقيمين خارج الدائرة القبلية أجانب عنها ولا ولاء يربطهم بالقبيلة.

فكان التحدي الأكبر أن يواجه ذلك التيار وأن يتم تزكية النفوس في سبيل بناء أمور عالمية يتعايش فيها مختلف الأجناس والأعراق.

وعلى هذا حارب النبي عليه الصلاة والسلام قيم التعصب واعتبرها قيما بالية نتنة وحذرّ الأمة من الردة إليها واعتبرها من الأمور الكبيرة كما في قوله صلى الله عليه وسلم: ((من نصر قومه على غير الحق؛ فهو كالبعير الذي رُدّي، فهو يُترع بذنبه)[5].

ثانيا: تفكـــيك أسباب التعصب

التعصب له أسبابه المختلفة إلا أن واحدا من أهم أسباب تزايده ودواعيه، غياب الحوار مع المخالف. مما ينجم عنه اتساع في الهوة بين الأغلبية التي تعيش غالبا في بلدها وبين أفراد مجتمعها وبين الأقلية المخالفة لها في الدين والمعتقد وتعيش معها لسبب أو آخر.

ويرى علماء النفس الاجتماعيين أن التعبير عن التوجه التعصبي لدى الأفراد يتخذ مراحل متعددة منها التمييزDiscrimination وتعد هذه المرحلة بداية أشكال التميز الضارة حيث يأخذ صاحب التعصب على عاتقه السعي إلى منع أعضاء الجماعات الخارجية من الحصول على التيسيرات والامتيازات التي يتمتع بها هو والآخرون من أعضاء جماعته.

من هنا كان اعتبار النبي عليه الصلاة والسلام فكر التعصب وخاصة التعصب في المعتقد Belief Prejudice من أخطر الأوبئة الفكرية والنفسية.

بل إن القرآن الكريم اعتبره من سيماء المجتمع الجاهلي ومن أخطر معالمه التي عانى منها الناس طويلا قبل الإسلام. كما اعتبر الخلاص من التعصب والعصبية من نعم الإسلام على العباد ومن ثمرات تنفيذ تعاليمه ومبادئه. قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٣.

ويرى علماء النفس أن مردّ التعصب مكتسب فهو فكر وسلوك يتعلمه الفرد ويتلقاه من خلال عمليات التعلم الاجتماعي سواء أكان ذلك في الأسرة من خلال آباء وأمهات متسلطين يمارسون التسلط على أبنائهم أو مع جماعة الأقران أو من خلال وسائل الأعلام المختلفة التي تعرض بعض أشكال العنف اتجاه فئات معينة أو جماعات محددة فتنمي روح الكراهية إزائها. ويعد هذا الاتجاه في تفسير ظاهرة التعصب الأكثر شيوعا وقبولا في ميدان علم النفس الاجتماعي بوجه عام[6].

وقد يكون الفرد في بداية حياته متمركزا حول ذاته ثم نما في مجتمعه ليصبح متحمورا حول الجماعة، ثم لعبت عوامل التنشئة الاجتماعية دورا في إكسابه وتعليمه اتجاهات معادية أو مناهضة لأحدى الجماعات فزادت المسافة الاجتماعية ونما الاتجاه السالب لديه[7].

كما يذهب علماء النفس كذلك إلى رد بعض أسباب التعصب إلى مشاعر نقص في المتعصب تجعله يغالي في الانتساب إلى قيم ومعايير جماعته ليقوى بها ويجد متنفسا لصرف مشاعر النقص لديه على أفراد الأقلية[8].

وخلاصة القول أن كافة أشكال التعصب تتوقف أساساً على استعداد الفرد أو الجماعة لقبول هذه الظاهرة أو المفهوم أو السلوك. فالانغلاق الذاتي للفرد والتربية الثقافية والتراكمات النفسية والثقافية والفكرية، تسهم في تشكل تلك السلوكيات الصدامية.

كما أن إنكار ورفض الاعتراف بالمخالف هو في حدّ ذاته سلوك صدامي عام يصدر من خلال القنوات النفسية والثقافية والعقائدية للفرد حتى يصبح عاجزا عن التفاهم مع الآخرين. وفي الطرف الآخر فإن الفرد المتسامح والايجابي نراه قادرا على التواصل مع الآخرين والانفتاح عليهم على كافة المستويات.

والتعصب أولى خطوات التطرفExtravagance فالإنسان المتعصب هو الذي لا يعترف للآخرين بوجود، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين، وموازنة ما عنده بما عندهم، والأخذ بما يراه بعد ذلك أنصع برهاناً، وأرجح ميزاناً[9]. وهو ظاهرة قديمة قدم الإنسان فقد عرفت البشرية موجات بالغة من التطرف. وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالجمود العقلي Dogmatism والانغلاق الفكري. فالتطرف في الأساس أسلوب مغلق للتفكير يتسم بعدم القدرة على تقبل أية معتقدات أو آراء تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة التي ينتمي إليها[10].

وهو اتجاه نفسي وانفعالي يجعل الفرد يؤمن بعقيدة أو حكم مسبق دون الاعتماد على سند منطقي أو معرفة كافية أو حقيقة علمية. الأمر الذي يقوده إلى عدم إدراك الواقع إلا من خلال نظرته الذاتية بكل ما تحمله من تحيزات[11].

وتشير الدراسات في علم النفس إلى أن التطرف مظهر من مظاهر التعصب للرأي الذاتي والعقيدة والفكر وعدم الرغبة في الاعتراف بالنقد الموجه من قبل الآخرين. من هنا يظهر التطرف من خلال الرفض لمناقشة الرأي الذي يعتقده، مما يجعله يقف في وجه كل فكر جديد. الأمر الذي يجرّه إلى اعتقاد أنه يمتلك الحق المطلق، مما يدفعه إلى التصرف في اتجاه تصويب الآخرين وإقناعهم بوجهة نظره. فإن لم يحدث اقتناع، لجأ إلى العنف وهو الممارسة العملية للتطرف الفكرى، والمحصلة النهائية له. والاستمرارية في رفض المخالف وآرائه مطلقا مهما بلغت من الصحة والصواب، فيزيد من حدة التطرف وقد تدفع به إلى العدوان لإسكات كل صوت يغاير رأيه واعتقاده.

ومما ينجم عن التطرف والتعصب، ظواهر العنف Violence والعدوان Aggession والعداوة Hostilty. فالعنف في جوهره حالة نفسية سلبية ضد الآخر بحيث تنفيه وترفضه في وجوده ونفسه أو في موقعه ومنصبه أو في مصالحه وعلاقاته، وتتحرك نحوه بطريقة عدوانية – تدميرية. والعدوان: أي سلوك يصدره الفرد بهدف إلحاق الضرر أو الأذى بفرد آخر أو بمجموعة من الأفراد بدنيا أو لفظيا بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

أما العداوة فهي استجابة اتجاهية تنطوي على المشاعر العدائية والتقويمات السلبية للأشخاص والأحداث وهو ما يعبر عنه بصورة لفظية[12].

والعلاقة جد قريبة بين الثقافة التي تؤسس لمقاولات الإكراه والإلغاء والنفي، والسلوك العدواني تجاه الآخر بمختلف درجاته. فالثقافة التي لا ترى إلا ذاتها وتلغي ما عداها، هي المقدمة النظرية لذلك السلوك العدواني الذي لا يرى إلا قناعاته ومصالحه ويعمل على تدمير الآخر بمستويات متعددة.

والعلاقة بين الثقافة التي تبث الكراهية بين بني الإنسان لدواعي أيدولوجية أو سياسية، وبين السلوك العدواني بكل مستوياته والذي يستهدف تدمير الآخر والغائه، هي علاقة السبب بالنتيجة.

فلا يمكن أن تنتج ثقافة الكراهية والبغضاء والإلغاء واقع المحبة والألفة والتسامح، بل تنتج واقعاً من طبيعة ماهيتها وجوهرها، وهو العدوان بكل صوره ومستوياته.

وهو سلاح يستخدمه البعض عندما لا يستطيع أن يستجيب لمتطلبات التواصل والحوار. فعندما يعجز الفرد عن إقامة التفاهم والاتصال الموضوعي مع الآخرين يلجأ للعنف لاثبات وجوده وفرض قيّمه. اذ أن استخدام العنف في غير موقعه يبين ضعف الفرد أو الجماعة في التواصل والاندماج بشكل سليم في المجتمعات البشرية وفقدان القدرة التفاعلية على الحوار والتفاهم والتكامل.

ويرى بعض علماء النفس العنف والعدوان بمختلف أشكاله في ضوء التفاعل بين التفسير الاجتماعي والتحليل النفسي لسلوكيات الفرد. مع تأكيد أهمية مفهوم الذات ومفهوم الآخر والتطور النفسي الاجتماعي لهذه الجوانب في بناء الشخصية، ومديات استعدادها لسلوك العنف والعدوان في حال فشل التفاعل والتواصل بين الذات والآخر[13].

كما يرى البعض الآخر منهم أن هذه الظواهر السلبية نتاج حالة الاغتراب الناجمة عن فقدان العلاقات الاجتماعية بين الأفراد بعضهم البعض أو توترها، وبينهم وبين المجتمع من ناحية أخرى، إضافة إلى وجود عقائد تحمل طابعا عدوانيا عنيفا في التعامل والسلوك. وتعتبر تلك المظاهر لبنات المرض النفسي وتكوينه لأي شخصية عدوانية ذات سمة إرهابية.

وتأسيساً على هذا فإن الفشل في إقامة العلاقة بين الذات والآخر على أسس القبول بالتعددية والاعتراف بحق الاختلاف ونسبية الحقيقة، من أبرز العوامل المكرّسة لموجبات العدوان على الآخرين.

ذلك العدوان الذي يعتبر أي اختلاف أيدلوجي أو سياسي أو ثقافي، مدعاة لانتهاك حقوق الآخرين، ومبررا للاعتداء على حرياتهم ومصادرة أفكارهم أو حياتهم في بعض الأحيان.

ثالثا: أسس المعـــالجة النبوية للتعصب

لقد استطاع النبي عليه الصلاة والسلام بحكمة بالغة أن يجتث جذور العصبية القبلية السائدة في الجزيرة العربية.

ومن أبرز الخطوات التي يمكن استنباطها لمعالجته النبوية لظاهرة التعصب والتي يمكن الإفادة منها اليوم على المستوى العالمي ما يلي:

– رفض فكر التعميم Hasty generalization

رفض الإسلام التنميط والتعميم في الحكم على الآخرين. فالقرآن منذ البدء لم ينظر إلى مخالفيه نظرة واحدة، و لم يفترض نظرة نمطية تجاه الآخرين. و لم يجعل العلاقة بين المسلمين ومخالفيهم حتى من الكفار والمشركين في سياق واحد بل تختلف تلك العلاقة وفق معايير متعددة.

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن ثمة آيات ونصوص عديدة في القرآن الكريم تحدثت عن "فئة"، و"طائفة" و"فريق" و"كثير" وهي مصطلحات تدل بوضوح على عدم وجود نمطية إزاء المخالف منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾. وقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾. وقوله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾. وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. وقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

وحين يتحدث القرآن عن الصفات السلبية للمخالفين من اليهود والنصارى، تأتي النصوص في غاية التخصيص والدقة، كما في قوله تعالى :﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[14]. وقوله: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[15].

كل هذه النصوص جاءت تأكيدا لنفي النمطية عن العلاقة بالمخالف في المعتقد. فالمخالف ليس جنسا واحدا وإن كثر فيه السوء أحيانا في زمن ما أو بيئة معينة.

والقرآن الكريم والمنهج السلوكي العملي له المتمثل في تعامل النبي الكريم، يعلّم المسلمين خطورة الوقوع في النظرة النمطية التي تقوم على أساس التعميم والإطلاق والنظر إلى الأمم والشعوب على أنها شريحة واحدة دون تمييز أو

تفرقة بين الأفراد والأشخاص، وهو أمر في غاية الإنصاف والعدل الذي باتت تفتقده أكثر الأنظمة العالمية ادعاء للمساواة والعدالة.

وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية الحديثة خطورة التنميط ودوره في توجيه الإدراك والعمليات المعرفية المنبثقة عنه، فإن تأثيره في توجيه تفاعل الفرد مع الآخرين وسلوكه تجاههم أكثر وضوحاً وأشد خطراً. فكثير ما يعتمد الفرد على صورة النمطية كأطر معرفية توجه سلوكه وتفاعله مع الآخرين فيسلك تجاههم على نحو يتسق مع هذه الصور وينسجم مع محتواها دون تفرقة أو تمييز بينهم[16].

والفكر التعميمي أو عمليات التنميط من الأمور التي رفضها القرآن الكريم رفضا قاطعا كما سبق ذكره في الدراسة[17]. والناظر في الساحة العالمية اليوم، يدرك خطورة ما أطلق عليه بعض المفكرين الغربيين الاسلاموفوبيا Islamophobia رُهاب الإسلام.

وتعرّف الموسوعة الحرة هذا المصطلح بأنه تعبير جديد للجدل الدائر حول إشكالية التحيز ضد المسلمين، والذي ابتدأ منذ أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات إلا أن حدته زادت بشكل واضح بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م. الأمر الذي جعل الأمين العام للأمم المتحدة – السيد كوفي عنان- يعلن خطورة التعصب والتحيز ضد المسلمين وآثاره السلبية التي باتت تقلق العالم عام 2004م.

كما أشار السيد Anja Rudiger المنسق التنفيذي لمركز الرصد الاوروبي للعنصرية وكراهيه الاجانب إلى خطورة الأمر وآثاره على المجتمع الدولي بشكل عام. ويرى العديد من الكتاب الغربيين أن الاسلامفوبيا نوع من أنواع التميز العنصري العرقي الجديد.

ويؤكد السيد جاك سترو أن هذا النوع من التميز ينظر إلى الإسلام باعتباره كتلة متجانسه وثابتة ولا تستجيب للتغيير، ولايعترف الإسلام بثقافات الآخرين – في نظرهم- كما يعتبرون الإسلام بربريا وبدائيا وجنسيا. وينظرون إلى الإسلام باعتباره إرهابا وعنفا وتهديدا، كما يعتبرون أي عداء ضد المسلمين، فهو أمر طبيعي وعادي[18].

تقول الكاتبة كارن آرمسترونج في سياق رفضها لذلك:

'WE have a long history of Islamophopia in Western culture that dates back to the time of the Crusades. In the twelfth century, Christian monks in Europe insisted that Islam was a violent religion of the sword, and that Muhammad was a charlatan who imposed his religion on a reluctant world by force of arms'[19].

وتؤكد الكاتبة وغيرها من المفكرين الغربيين أهمية النظرة الموضوعية والتحرر من التعصب والولاء لأفكار مشوهة حين يتم تناول حياة النبي عليه الصلاة والسلام للتمكن من رؤية إنجازاته العظيمة التي حققها للبشرية بروح التسامح والسلام.

كما توضح الكاتبة قدرة النبي صلى الله عليه وسلم في اجتثاث روح العصبية القبلية التي سادت في حياة القبائل العربية قبل الإسلام، فكان الواحد منهم يقتل وينهب ويسلب لأجل ولائه لقبيلته فقط. وتؤكد أن الإنجازات التي حققها في مجال الإصلاح الاجتماعي، لم تكن لتتحقق لولا قيامها على الحلول الروحية القادرة على تحريك مشاعر الإنسان وتغييره.

وترى الكاتبة أن هذه الطاقة الروحية استطاعت أن تحول الرغبة لدى القبائل العربية في القتال والصراع إلى النظر والتأمل والتفكر في قدرة الخالق وكرمه وعطائه ومن ثم الشعور بالمسؤولية تجاه نفسه والآخرين، وهو ما يحتاج العالم إلى إدراكه اليوم[20].

يقول إدوارد سعيد: "ساهمت النخب الثقافية ومواقع صنع القرار في الولايات المتحدة، في تعزيز وتكثيف الصورة النمطية للإسلام كتهديد للغرب. من رؤية زبغنيو برجنسكي في "هلال الأزمات" إلى نظرية برنارد لويس في "عودة الإسلام"، تبدو الصورة المرسومة موحدة: "الإسلام" يعني نهاية الحضارة كما نعرفها "نحن"؛ الإسلام ضد الإنسانية، ومعادٍ للسامية، ولاعقلاني"[21].

– تبني الحـــوار

من أبرز الأساليب التي استعملها النبي عليه الصلاة والسلام لعلاج داء التعصب، الحوار. فهو الحل الأمثل لإخراج الإنسانية من تلك الدوامة. فالحوار سبيل يعزز مبدأ التعايش بين الحضارات والتواصل الإيجابي بينها لإبراز العناصر التي تعزز احترام الحضارات والأمم الأخرى. فالحوار الهادف المنضبط يعد من أنجع الوسائل في تخليص الفرد والمجتمع من وباء التعصب وتحصينه منه. فالاتصال المباشر بين الجماعات المختلفة يسهم في تخفيف حدة القوالب النمطية والاعتقادات الخاطئة والعمل على تغييرها كما أن التقارب والتفاعل يزيدان في القوة والمحبة بين الجماعات المختلفة.

ويمكن تفعيل هذه الوسائل خاصة في الدول الإسلامية التي يعيش فيها أقليات من معتقدات مختلفة. ففي ظل التقارب والاتصال تزداد فرص التفاعل الإيجابي وإمكان قيام علاقات تقوم على الحوار والاعتراف بالآخر.

والسيرة النبوية حافلة بالشواهد التي تدل على وقوع أنواع شتى من الاتصالات التجارية والثقافية بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الملل الأخرى في مجتمع المدينة، مما أدى إلى غياب روح التعصب والقضاء عليها إلى حد كبير رغم وجود جماعات متباينة في المجتمع الواحد كما أشارت الدراسة إلى ذلك سابقا.

فلغة الحوار هي السبيل الأمثل للتواصل مع الآخر في الوجود الإنساني، وإن كان يحمل رأياً مناقضاً أو فكراً معارضاً، أو مذهباً يبتعد في تكوينه عن الآخرين.

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على مدّ جسور الحوار والتعارف في مجتمع المدينة مع مختلف الفئات المتواجدة آنذاك، ليخلص المجتمع من القوالب النمطية المهددة بإشعال التعصب والتحزب من حين لآخر. جاء في السيرة النبوية عَنْ أَنَسٍ أَنَّ يَهُودِيًّا دَعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى خُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ فَأَجَابَهُ[22].

والتعصب باعتباره سلوكا متعلما، يمكن تغييره أو التخفيف من حدته إلى حد كبير، من خلال تفعيل وسائل التوعية والدعاية غير المباشرة والتثقيف. ويلعب التعليم دورا إيجابيا هاما من خلال التشجيع على تقريب المسافات بين الجماعات المتعايشة خاصة تلك التي تشترك في مجتمع واحد[23].

ولا يشترط في الحوار والاتصال أن يكون بشكل مباشر بين الجماعات المختلفة، بل يكتفى بالمشاركة في أعمال ومشاريع متنوعة، يحدث من خلالها احتكاك واطلاع على إمكانيات الآخرين وأفكارهم. ولا تخفى أهمية الحوار الجاد في نشر روح التسامح والتعايش وما يترتب عليى ذلك من تلاقح فكري وحضاري.

تقول المستشرقة زيغريد هونكة: " كانت الاحتكاكات بين الآراء المختلفة قد منحت الحركة الفكرية حيوية دائمة وحمت الإسلام من الجمود وأجبرته على أن يسلح نفسه علميا وأن يتطور بالقوى العقلية وينهض بها من سباتها"[24].

وقد أثبتت الدراسات السيكواجتماعية، ومدرسة جنيف التي تتعلق بالبناء الاجتماعي للذكاء، أن القدرات العقلية للفرد لا يمكنها أن تتطور إلا مع الآخر المختلف أي في ظل الصراعات المعرفية، التي تشكل المجال الأفضل للتطور الذهني والمعرفي. فالتفاعل الاجتماعي، يمكّن الفرد من بناء أدوات ذهنية جديدة تساعده على مزيد المشاركة في تفاعلات اجتماعية أكثر تطوراً وأكثر تعقيداً، وهو ما يسمى بالسببية اللولبية[25].

كما تؤكد الأبحاث التطبيقية في علم النفس والتعليم التي قام بها جان بياجيه[26] (1896-1980) أن التقدم المعرفي وإثراء الفكر لا يحصل إلا إذا وجد الأفراد أنفسهم في وضعيات اختلاف ومواجهة مع أفراد متنوعي المستويات والتوجهات. وبناء على ماقدمته هذه الأبحاث من حقائق يمكن أن نستنتج أن أي صراع معرفي بإمكانه أن يؤدي إلى إثراء الفكر يشترط وجود اختلافات في آراء الأطراف المجتمعة حول عملية تملك المعرفة.

إذ أن الاختلاف يفرز لدى الفرد وعياً مزدوجاً[27]. فهو من ناحية يشعر الفرد أن نظامه التأويلي غير متلائم مع ماهو مطلوب منه فيتجاوز بذلك البداهة الخادعة والأفكار المسبّقة والمعارف الحسية المباشرة والسطحية عبر تصحيح الفكر بالوقائع، وترشيد الواقع بالفكر في حوار جدلي دائم. ومن ناحية أخرى يكتشف الفرد أوجه نظر مغايرة، وهو أمر جد هام: لأن هذا الاكتشاف سيعينه على تجاوز التمركز حول الذات (أي تمركزهُ حول ذاته) المضرة بالنمو السليم لفكره، لأن الطفل يتجاوزها عند سن السابعة. إلا أن إثراء الفكر عن طريق الصراعات المعرفية يتطلب مُناخاً معيناً يقبل الاختلاف ويسوده التفاهم والتسامح.

وقد بينت الدراسات السيكواجتماعية منذ تجربة كـــ. لوين المجرات سنة 1938 ـــ مدى تأثير الأجواء السائدة على نتاج الفكر وإثرائه.

كما تؤكد النظرية التفاعلية الاجتماعية لدواز Doise أن التعلم لا يتم عن طريق الصراع المعرفي فحسب بل يتم بصفة أفضل داخل المجموعة وذلك عن طريق الصراعـــات الاجتماعية المعرفية *Les conflits sociocognitifs*.

وقد أبرزت مدرسة جينف من خلال مباحثها أن دينامية التطور المعرفي تكون أفضل داخل وضعيات التفاعل الاجتماعي تلك التي تحمل كل مشارك في الصراع على ابداء آرائه أو تنسيق جهوده مع الآخرين الشيء الذي يمكنه من التطور المعرفي، وتشترط لذلك: وجود نسبة من الاختلافات بين آراء الأفراد. كما ترى ضرورة تنظيم المشاركة وتطوير الصراع المعرفي ليؤتي ثماره.

وتشكل العوامل الذاتية أكثر العناصر محورية وأهمية في الذات. فالنفس الإنسانية عندما تسرف في تقدير ذاتها وتستعلي على الآخرين وتحس بالتفوق المطلق ترفض الاعتراف بغيرها، ومن هنا ينشأ الاستبداد. هذا بالإضافة إلى سيطرة الروح الأنانية والمصلحية في الإنسان التي تحاول ان تحتكر كل شيء لصالح منافعها الخاصة، هذه الأنانية قادت ولاشك إلى كثير من النزاعات والصراعات العبثية. ويرى الفيلسوف الفرنسي ألكسيس دي توكفيل[28] Tocqueville أن الفردية بحد ذاتها صيغة مخففة من الأنانية التي تدفع كل فرد من أفراد المجتمع إلى عزل نفسه والابتعاد عن الآخرين. ويرى توكفيل أن تماسك المجتمع يتطلب تجاوز النزعة الفردية والأنانية الضيقة[29].

إن القراءة التاريخية لمعظم الأمم والحضارات تعطينا نتيجة واضحة وهي ان الأمم التي استطاعت ان تتقدم وتتطور وترتقي سلم الحضارة هي الأمم التي استطاعت ان توجد حالة التجانس والتعايش والتفاهم بين مختلف الفئات والقوميات والطوائف والأديان وفي مختلف جوانبها النفسية والاجتماعية والسياسية بحيث كُتب لها البقاء التاريخي على مرور الأجيال لقدرتها على تحقيق الوفاق الإنساني والسلام العام.

والأمة الإسلامية التي أنشأها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، شاهد حيّ لايزال يزخر بنماذجه الرائعة. فقد استطاعت أن تجمع النسيج البشري في أطر متوافقة من أجل البناء المشترك والحياة السليمة والعدالة العامة بعيدا عن الحرب والقتل والعنف.

فقد استفاد المجتمع المسلم من التواصل الإيجابي مع محافظته على قيمه الذاتية، بناءا على وجود قدرة واعية في تفهم الآخر والاستفادة بشكل متبصر من خلال التبادل الفكري والعلمي والحضاري. من هنا وجدت شخصيات بارزة

أسهمت في صياغة الحضارة الإسلامية ونموها رغم مخالفتها في المعتقد والملة. و لم يكن في أي زمن من الأزمنة عنصر التنوع والاختلاف، مشرّعا للتناحر والصراع والتصادم.

فالثقافة التي لا ترى إلا ذاتها وتلغي ما عداها، هي المقدمة النظرية لسلوك عدواني اتجاه الآخر المختلف مطلقا، أيا كانت درجات ذلك الاختلاف. وبذلك تصبح الذات لا ترى إلا قناعاتها ومن ثم تعمل على التخلص من كل ما هو يخالف تلك القناعات وتلغيه.

فالحوار نوع من مشروع إصلاح الذات وتخليصها من سموم الثقافة العدوانية التي ما هي إلا مرحلة متقدمة من تغييب الآخر وإلغائه لمجرد مخالفته للذات في الأيدلوجية أو الموقف ونحو ذلك.

فالحوار خطوة ضرورية لتخليص الأفراد والمجتمع من طوفان الاستبداد الفكري القائم على احتكار الحقيقة وتعرية الآخر منها. الأمر الذي يمكن أن يسوق إلى الانتقال إلى مرحلة التفاهم القائم على احترام وجهات النظر وتبادلها بغية التوصل إلى الخلاص من مرحلة الأزمة. ومن ثمّ تحسين علاقة الإنسان بالإنسان بل الدول بالدول.

ذاك أن تلك العلاقات إن قامت على أساس الحوار واعتمدت المنطق الذي يقوم على العقل كتب لها النجاح. من هنا كان الإسلام أول الأديان التي دعت إلى الحوار بين أصحاب الديانات والحضارات الأخرى. كما أن اللقاء الحضاري الإسلامي مع حضارات الأمم المختلفة قد تم على أساس وطيد، ربما لم يتم التوصل إليه من قبل الكثيرين إلا في مرحلة متأخرة.

فالعالم في نظر الاسلام أقرب ما يكون إلى منتدى عالمي لحضارت متميزة تشترك أممها في عضوية هذا المنتدى ومن ثم فلا بد ان يكون بينها مشترك حضاري عام كما لابد أن تكون لكل منها مميزات حضارية تحفظ لها هويتها[30].

والحوار ضرورة حتمية لا تستغني عنها أي حضارة في سبيل تطوير ذاتها. فمن المعروف أن عملية التلاقح الحضاري، تتم من خلال الاقتباس والنقل والتبادل المعرفي وهذه أمور متداولة بين الشعوب قاطبة. فكل حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت و لم توجد حضارة أبدعت و لم تنقل عن غيرها فالنقل والتلاقح والتفاعل والأخذ والعطاء الثقافي ليس وباء وإنما ضرورة حضارية وظاهرة صحية[31].

و لم يكن المسلمون في يوم من الأيام معزولين عن غيرهم من أصحاب الثقافات العريقة. فقد اختلطت الثقافات وتزاوجت في حركة ثابتة مستمرة مما أدى إلى عمليات تصفية للأفكار والمعارف وتقدمها تبعا لذلك الاختلاط والتزاوج الثقافي.

في مثل تلك الأجواء ظهر الإسلام وترعرع فلم ينتشر في فراغ حضاري فقد كانت الأمم والشعوب التي دخلت فيه، ذات حضارات شتى ومشارب فكرية عدة. فاختلطت الثقافات وتمازجت الأفكار وكان الحوار وثقافته سيدا الموقف، ووسيلتا التبادل الحضاري الفكري. وعلى هذا فقد عرف المسلمون حضارة الهند وحكمة فارس وفلسفة اليونان واختلط المسلمون بأقوام شتى تنوعت عقائدهم وتشعبت آراؤهم والتقوا بمئات المفكرين والمثقفين من أمم شتى فشاع الحوار الثقافي الذي كان مدعاة للتفاعل الحضاري والذي هو من أهم سمات الحضارة الإسلامية.

بيد أن هناك ضابط لا ينبغي تجاهله في أثناء إجراء هذا الحوار، يقوم على ضرورة التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام، لا غضاضة في الانفتاح عليه وتقبله، والسعي في تحصيله، وبين ما هو خاص بالأمة ذاتها. فلا يُفهم من الحوار والتلاقح الحضاري أنهما أدوات لتذويب الثقافة والهوية الحضارية للأمم.

فلقد اختلط الأوروبيون بمن هم أرقى منهم، فاستفادوا من الحضارة الاسلامية مما أسهم في النهضة الأوروبية الحديثة. إلا أنها استفادت فيما هو مشترك إنساني عام و لم تأخذ من الحضارة الاسلامية خصوصيتها الإسلامية[32].

وعلى هذا ينبغي تعزيز مبدأ شرعية الاختلاف الحضارى والخصوصية الذاتية للأمم والحضارات، مع التأكيد على أن الاعتزاز بالهوية والخصوصية الحضارية لا يعنى الانغلاق وتجاهل الحضارات الأخرى وإدعاء التميز عليها، ورفض نتاجها الإنسانى. فالتاريخ الحضارى فى مجمله ثمرة الجهد الهائل والمتراكم للمسيرة الإنسانية على مدار التاريخ.
وتأسيسا على هذا كانت الحضارة الإسلامية حضارة عالمية وإنسانية منفتحة، قابلة لاستيعاب كل أنواع الثقافات التى احتكت بها. فلا تعارض بين الحفاظ على الهوية وبين الأخذ والاقتباس من الحضارات الأخرى[33].

وقد أوضحت الدراسات الاجتماعية والبحوث في ميدان الإدراك الاجتماعي خطورة غياب الحوار بين الأفراد الذين يعيشون في مجتمع واحد في تكوين وإصدار أحكام مسبقة على الآخرين يتم من خلالها ظهور صور نمطية جامدة. ويتم من خلال عملية التنميط تلك تصور الفرد لجميع أعضاء الفئة أو الجماعة بطريقة متشابهة متغاضيا عن الفروقات الفردية الموجودة بينها. وبحكم هذه العملية المعرفية يقوم الفرد بحشر جميع أفراد هذه الفئة أو الجماعة في صورة نمطية جتمدة بناءً على معرفته البسيطة أو السطحية لبعض أفرادها أو تجربة عابرة مع بعض أفرادها ويحدث هذا غالبا عندما يتعذر الاتصال والحوار والتفاعل بين الفرد والآخرين من تلك المجموعة.
كما يحدث أولا من خلال تحديد الفرد أو جماعة ما لفئة من الأفراد (مبدأ التصنيف) ثم قيامه بعزو (Attribute) مجموعة من الخصائص والسمات إلى هؤلاء الأفراد ثم في النهاية التعميم فيعزو تلك الخصائص إلى أي شخص ينتمي إلى هذه المجموعة[34].
وقد يشترك عدد من أفراد المجتمع بهذا التصور وتنتشر فيه حتى تصبح ظاهرة مؤثرة في إدراكهم وسلوكهم تجاه تلك الجماعة المنمطة Stereotyped ويرى أصحاب الاتجاه الاجتماعي عامة والعالم تاجفل بصفة خاصة أن تكوين هذه العملية يتأثر كثيرا بثقافة المجتمع وقيمه ومعاييره وبالتصورات المتبادلة بين الجماعات الاجتماعية داخل المجتمع[35].
إن مثل هذا التحليل والفهم لطبيعة العلاقات الاجتماعية بين الجماعات في المجتمع هو الذي يمكن أن يساعدنا على معرفة أسباب لجوء الجماعة الداخلية إلى التنميط السلبي للجماعة الخارجية(المخالفين في الدين) وإضفاء عدد من السمات السلبية عليها مما يساعد في مرحلة لاحقة في تبرير اضطهادها أو استغلالها وقد يسّوغ لها معاملتها التمييزية والتعصبية ضدها[36].من هنا تتأكد فريضة الحوار بين المسلمين ومخالفيهم في المجتمعات المختلفة، سواء أكانت تلك التي يشكل المسلمون فيها أغلبية أو أقلية. فالحوار وسيلة وقائية لعدد هائل من الأمراض والأوبئة الاجتماعية التي ربما لا يدرك الأفراد خطورتها إلا عند وصولها حدّ الخطر والإنذار، وقد تصبح مستعصية على العلاج آنذاك.
وقد عمل النبي عليه الصلاة والسلام على ربط الناس بهذه الرؤية، وبالأهداف الحضارية الكبرى للإسلام كبديل عن أهداف الجاهلية القديمة وعصبيتها وولاءاتها المتهافتة. لقد كان جهد الرسول صلى الله عليه و سلم منظماً، ومخططاً بواقعية وعلمية وتوازن.
هذا الذي ظهر من خلال حركة النبي عليه الصلاة والسلام من أجل بناء قاعدة بشرية، ترتبط بأهداف الإسلام الحضارية، وتقتنع برسالته ومشروعه، للتحرك في تناسق، وتناغـــم، وانسجـــام من أجـــل تحقيق رسالة السلام والتعايش العالمي.
إن ما يحويه القرآن والسنة النبوية من قيّم ومُثل وخطوات تنظيرية وعملية في إصلاح مختلف مجالات الحياة، كفيلة بإدارة دفة العالم السائر إلى هاوية الانحطاط والتراجع الحضاري والانهيار الأخلاقي. وهذه القيم ليست قيّما ضاربة في المثالية أو بعيدة عن الواقع، فقد تحققت بالفعل وعاينها العالم بأسره حين استطاع المسلمون تنفيذها في واقع حياتهم وتحويلها إلى سلوكيات وأخلاقيات.

الخـــاتمة

تناولت هذه الورقة محاولة لمعالجة داء التعصب من خلال الآليات والوسائل الفكرية والعملية التي سار عليها النبي عليه الصلاة والسلام في اجتثاثه للتعصب على مستوى الأفراد والمجتمع بشكل عام. وهي آليات أثبتت فاعليتها وقدرتها على المعالجة في ظل مختلف الظروف الزمنية والبيئية وفق ما توصلت إليه نتائج الدراسات الاجتماعية والنفسية في المجال.

كما تناولت الورقة أبرز وسيلتين اتخذهما النبي صلى الله عليه وسلم لمعالجة التعصب وهما: رفض فكر التعميم، وتبني الحوار.

الهـــوامش :

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1955م،ج2، ص 296.

[2]- عبد المنعم الحفني، الموسوعة النفسية، مكتبة مدبولي، مصر، 1995، ص 345.

[3]- معتز عبد الله، التعصب دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، 1997م، ص 88.

[4]- الحفني، مرجع سابق، ص 349.

[5]- سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في العصبية، حديث رقم 431.

[6]- معتز سيد عبد الله، مرجع سابق، ص 558.

[7]- ليلى عبد الستار، تنمية التفكير السليم لدى الشباب الجامعي لمواجهة التطرف، مجلة دراسات تربوية، المجلد السابع، الجزء 43، القاهرة، 1992م، ص 197.

[8]- الحفني، مرجع سابق، ص 352.

[9]- مصطفى سويف، التطرف كأسلوب للاستجابة، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968م، ص 4.

[10]- سمير نعيم، المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف الديني، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، يناير 1990م، ص 111.

[11]- حامد عبد السلام زهران، علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1974م، ص 165.

[12]- بتصرف عن: عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003م، ج1، ص 45.

[13]- معتز عبد الله، صالح ابوعباة، أبعاد السلوك العدواني دراسة عاملية مقارنة، مجلة دراسات نفسية، المجلد الخامس، العدد الثالث، 1995م، ص 521 وما بعدها.

[14]- سورة آل عمران: 78

[15]- سورة آل عمران: 69.

[16]- John M. Darely and Russell H. Fazio, Expectancy Confirmation Processes Arising in the Social Interaction Sequqnce, American Psychologist, vol. 35, no. 10 October 1980), pp. 867-881.(

[17]- من المؤسف ما يقوم به بعض الكتاب الغربيين من تشويه لسمعة الإسلام وتاريخ المسلمين وشخص النبي الكريم بطريقة أبعد ما تكون عن الموضوعية والعقلانية. انظر : Serge Trifkovic, What Muslims, multiculturalists, and the media *hope, you never find out* about Islam

[18] - http://en.wikipedia.org/wiki/Anti-Muslim. Castle, Stephen. "Islamophobia takes a grip across Europe", *The Independent*, December 18, 2006

[19] - Karen Armstrong,p. 17.

[20] - Karen Armstrong, p. 63.

[21] - Edward Said, "*Islam Through Western Eyes*," The Nation, 3 April 1980. http://www.thenation.com/doc/19800426/19800426said

[22]- مسند أحمد. حديث رقم 13357

[23]- راجع في ذلك كله: ليندا، ل، دافيدوف، مدخل علم النفس، ترجمة سيد الطواب وآخرون، القاهرة، 1983م، ص616 وما بعدها.

[24]- زيغريد هونكه، ص 373.

[25]- حول ذلك انظر: عبد المنعم الحفني، موسوعة مدارس علم النفس، مكتبة مدبولي، مصر، 1995، ص 471.

[26]- نظرية الارتقاء المعرفي لـــ " جان بياجيه" "1896- 1980" هي واحدة من أهم النظريات في علم النفس الحديث، واذا كان مقياس اي نظرية يقاس بقابلية فروضها للتحقق من صحتها وامكانية الحصول على نفس النتائج في ظروف مشابهة مع وضوح التعريفات المتعلقة بالنظرية الى جانب ما يمكن للنظرية أن تثيره من بحوث جديدة، فاننا نستطيع ان نقول أن أغلب هذه الشروط – ان لم يكن كلها – قد توافرت لنظرية "بياجيه" بطريقة لم تتوافر لأية نظرية اخرى مشابهة في مجال علم النفس ، فقد حصر "مدجل" حتى عام 1976 ما يزيد على 35 ألف بحث ودراسة أجريت حول المفاهيم الاساسية في نظرية "جان بياجيه".

[27]- أرنو ف. وبتبيج، نظريات ومشكلات في سيكولوجية التعلم، ترجمة: عادل عز الدين الأشول وآخرون، دار ماكجروهيل للنشر، 1984م، ص 329. وانظر: جان بياجيه ، اللغة والفكر عند الطفل ، ترجمة احمد عزت راجح ، ط1 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1954 م.

[28]- ولد توكفيل بعد الثورة الفرنسية مباشرة (عام 1805) ومات بعد أواسط القرن التاسع عشر بقليل عن عمر لا يتجاوز الرابعة والخمسين عاماً، مفكر سياسي وعالم اجتماع ومؤرخ عميق في ذات الوقت، وقد ولد اصلاً في عائلة ارستقراطية مؤيدة للعهد القديم ومعادية بالضرورة للثورة الفرنسية التي قضت على امتيازات الطبقة الارستقراطية ومصالحه. خلف وراءه بعض الكتب المهمة من أشهرها الديمقراطية في أمريكا.

[29]- حول ذلك كله انظر:

Oliviour Zunz & Alan S. Kahan,The Tocqueville Reader, Blackwell Publishing. Oxford, 2003.

[30]- محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، طبعة الأزهر، 1988م، ص 8. وانظر كذلك: أحمد عبد الرحيم السايح، في الغزو الفكري، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، قطر، رجب 1414هـ، ص 122.

[31]- بتصرف: محمد عبد الرحمن مرحبا، أصالة الفكر العربي، منشورات عويدات، بيروت، 1982م، ص 152.

[32]- ألفريد جيوم، الفلسفة وعلم الكلام، بحث منشور ضمن كتاب تراث الإسلام، ص 394.

[33]- بتصرف عن: علي فهد الزميع، منهج التواصل بين حضارات العالم، بحث مقدم للمؤتمر الثامن. مرجع سابق، ص 3.

[34] - Paul F. Secord and Carl W. Backman, Social Psychology (New York: McGraw-Hill). 1974, p. 15.

[35] - Henri Jajfel, Individuals and Groups in Social Psychology, British Journal of Social and Clinical Psychology, vol, 18(1979), pp. 183-190.

[36] - Tajfel, Social Stereotypes and Social Groups(Little Brown Co) 1980. pp.123.